إستراتيجية الفوضى الأمريكية مقابل هندسة التمكين الروسية: صراع إعادة تشكيل النظام العالمي

بقلم: حنين محمد الوحيلي

باحثة في مركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية

11 شباط 2025

حقوق النشر محفوظة لمركز حمورابي للبحوث والدراسات الإستراتيجية

لا يجوز نشر أي من هذه الابحاث والدراسات والمقالات الا بموافقة المركز، ويجوز الاقتباس بشرط ذكر المصدر كاملا، وليس من الضروري ان تمثل المقالات والابحاث والدراسات والترجمات المنشورة وجهة نظر المركز وانما تمثل وجهة نظر الباحث

في شباط 2025، لم تكن الرسوم الجمركية التي فرضها (ترامب) على الحلفاء مجرد قرار اقتصادي عابر، بل كانت ضربة متعمدة لهيكل النظام العالمي الذي قادته أمريكا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. هذه الخطوة التي وصفها محللو مؤسسة راند بأنها "تفكيك ممنهج للهيمنة الغربية"، لم تأت من فراغ، بل هي جزء من استراتيجية أمريكية تعتمد على صدمة النظام القديم لاستعادة الهيمنة من جديد. لكن في الجانب الآخر من العالم، تتحرك روسيا (بوتين) بخطى واثقة، محولة العقوبات إلى نقاط ارتكاز، والفوضى إلى فرص، وكأنها تعيد كتابة قواعد اللعبة الجيوسياسية بدم بارد.

لم تكن رسوم (ترامب) الجمركية على الواردات الأوروبية مجرد حرب تجارية، بل إعلاناً صريحاً عن رغبة أمريكا في التخلي عن دورها كحامية للنظام الليبرالي. وفقاً "لمعهد التمويل الدولي" قد تؤدي هذه الخطوة إلى تقليص التجارة الثنائية بنسبة 35%، وهو مسار يشبه نبوءة كساد 1929. لكن الأكثر خطورة هو ما تخفيه هذه الرسوم، تفكيك التحالفات الغربية عبر خلق أزمات مالية وسياسية مدبرة. فمطالب (ترامب) بزيادة إنفاق الناتو إلى 5% من الناتج المحلي الإجمالي (ما يعادل تريليون دولار) ليست مجرد رقم غير واقعي، بل هي قنبلة موقوتة تهدد بشرخ عميق بين أوروبا الشرقية المطالبة بالحماية العسكرية المكلفة، وأوروبا الغربية الرافضة لتمويلها. النتيجة المحتملة انقسام الاتحاد الأوروبي إلى كتل إقليمية متنافسة، وفراغ أمني تملؤه روسيا عبر توسيع نفوذها في الفضاء السوفيتي السابق.

هنا، يبدو الانسحاب الأمريكي من الناتو خياراً مغرياً لواشنطن لإعادة توجيه مواردها نحو المواجهة مع الصين، لكنه في الوقت ذاته يشبه انتحاراً استراتيجياً. فإغلاق مقر الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (USAID) ليس مجرد تقليصاً للإنفاق، بل انكفاء عن الدور الأخلاقي الذي منح أمريكا شرعيتها كقائدة للنظام العالمي. السؤال الذي يطرح نفسه، كيف تجازف واشنطن بحرق ورقة الهيمنة الاقتصادية التي قد تنهي عصر الهيمنة العسكرية أيضاً؟

بينما تسرع أمريكا نحو الفوضى، تبنى روسيا نظاماً عالمياً بديلاً بخطى صامتة. فالعقوبات التي فرضها الغرب منذ 2014 لم تضعف موسكو، بل حولتها إلى مختبر للابتكار الجيوسياسي. بحسب تقرير مجلس الاستخبارات الوطني الأمريكي، خفضت روسيا اعتمادها على الدولار من 80% إلى 30% خلال عقد واحد، عبر تحالفات الطاقة مع الصين (مشروع Power of Siberia 2) الذي يمول "باليوان"، وإنشاء نظام "SPFS"

البديل لـ "SWIFT"، الذي اجتذب 1,200 بنك عالمي بحلول 2025. حتى العقوبات الزراعية تحولت إلى سلاح، فتصدير القمح الروسي إلى 62 دولة جعل موسكو لاعباً رئيساً في أزمات الغذاء العالمية، وكأنها ترد على العقوبات بـ "دبلوماسية الخبز".

لكن الأهم هو الاستراتيجية الروسية الأوسع، من خلال بناء تحالف "أوراسي" مع الصين وتركيا وإيران، يرتكز على أمن الطاقة والتجارة غير الخاضعة للرقابة والهيمنة الغربية. هذه الشبكة ليست تحالفاً عسكرياً تقليدياً، بل نظاماً اقتصادياً سياسياً بديلاً، يهدف إلى تحويل روسيا من "دولة منبوذة" إلى "شريك لا غنى عنه" في إدارة الفوضى العالمية. كما قال (بوتين) في منتدى "فالداي" 2024، "القوة لم تعد في القدرة على الفعل، بل في التحكم بتوقيته"

ردود الفعل الأوروبية على التصعيد الأمريكي تكشف تناقضاً وجودياً، فبينما هددت ألمانيا بالرد بالمثل على الرسوم الجمركية، اعترف وزير إسباني بأن "الرد الأوروبي يجب أن يكون موحداً.. لكن دون سذاجة". هذا التضارب ليس مجرد خلافاً سياسياً، بل هو تعبير عن أزمة هوية تعصف بأوروبا في لحظة مصيرية. فالمعضلة ليست اقتصادية فحسب (فقدان 40% من الواردات الأمريكية سيصعب الحياة على الشركات الأوروبية)، بل وجودية، هل تستطيع أوروبا بناء جيش موحد لتعويض الانسحاب الأمريكي؟ التجربة التاريخية تشير إلى أن الخلافات بين بولندا المطالبة بدرع عسكري ضخم وألمانيا الرافضة لتمويله قد تعيد إنتاج انهيار الاتحاد الأوروبي إلى دويلات ما قبل الحرب العالمية الأولى.

ثمة أربع مسارات محتملة على المدى القريب والمتوسط:

1. **مسار الانهيار الممنهج (الاحتمال الأعلى):** انسحاب أمريكي من الناتو، تفكك أوروبي، توسع روسي في أوكرانيا وجورجيا، فضلاً عن صعود العملات الرقمية المسيطر عليها من الصين.
2. **مسار التكيف الاستراتيجي:** عودة أمريكا إلى سياسات ما بعد الحرب الباردة، احتواء روسيا عبر تحالفات مرنة مع الهند واليابان.
3. **مسار الحروب بالوكالة:** اندماج الحرب التجارية بأزمة تايوان من خلال تصعيد عسكري يعيد إحياء الحرب الباردة بوجه آسيوي.
4. **مسار النظام الأوراسي:** تحول مجموعة شنغهاي إلى حلف عسكري - اقتصادي، وهيمنة "الروبل" و "اليوان" على نصف التجارة العالمية.

الدرس الأهم من استراتيجيتي (ترامب) و(بوتين) هو أن النظام العالمي لم يعد يحتمل القطبية الأحادية. فبينما تدفع أمريكا الثمن الأغلى لانتحارها الاستراتيجي (تراجع الدولار إلى 52% من الاحتياطيات العالمية)، تتحول روسيا من دولة محاصرة إلى مهندس لنظام جديد. لكن السؤال الأكثر إلحاحاً، هل ستنجو أوروبا من هذه المعركة؟ أم أنها ستكون أول ضحايا فوضى لم تحسب حساباتها؟ الإجابة قد تحدد مصير القرن الحادي والعشرين، إما عالم متعدد الأقطاب تدار أزماته من موسكو وبكين وواشنطن، أو فوضى عارمة لا مكان فيها إلا لصراع الجميع ضد الجميع.